إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الحادية عشرة ـ العدد الحادى والأربعون ـ ربيع ١٤٠٠ش / آذار ٢٠٢١م
DOR: 20.1001.1.22516573.2021.11.41.4.1
صص ١٠٨ ـ ٨٥

ازدواجية التجربتين المختلفتين؛ لمدينة الديستوبية فى تجربة "ياسين طه حافظ" الرومانسية

عاطى عبيات*
عبدالحسين فقهى**
حسين إلياسى (الكاتب المسؤول)***

الملخص

ينتمى شعر "ياسين طه حافظ" إلى شعر طائفة من الشعراء الذين مزجوا فى أشعارهم بين تجربة الحبّ الرومانسى وتجربة المكان فى بعده العام الخارج عن الإطار الرومانسى المرتبط بحالات الحب والاشتياق أو البعد والافتراق. تكون التجربة الرومانسية فى هذا النمط من الأشعار فريدة فى نوعها بحيث تسرد قصة الحب المرتبطة بالمجتمع الفاسد والمدينة الفاسدة أى يسرد الشاعر من خلال أشعاره الرومانسية الحالات الفاسدة الغير مرغوبة فيها للمدينة والمكان. يحاول هذا البحث عبر المنهج الوصفى _ التحليلى دراسة هذا الملمح الشعرى الجديد فى أشعار" ياسين طه حافظ" والهدف المرجو هو الكشف والإبانة عن التمظهر الواسع لهذا الدمج الشعرى الإبداعى بين الديستوبيا وتجربة الحب الرومانسية وتشير النتائج إلى أن شعر "طه حافظ ياسين" يمثّل شعراً ذى البعدين فى ارتباطه بالمكان وتجربة الحب الرومانسى الذى يحكى قصة حبّ الشاعر لعشيقته فاطمة رمزاً أو حقيقةً. فعمد الشاعر فى أشعاره على تجسيد الحالات الفاسدة وغير المرغوبة للمكان الذى يعيش فيه والذى يختلف ويكون فى مفارقة كاملة مع صفاء الحب وبراءته ولا يمكن للإنسان المعاصر أن يمتلك تجربة الحب الرومانسى الخالص فى مثل هذه المدينة. فالمدينة والمكان اللذان يخوض فيهما الشاعر لا يحملان البعد المنشود المثالى فالمدينة فقدت فى شعر الشاعر بعدها المثالى ولايشمُّ منها رائحة الصفاء والبراءة ولا تكون المدينة المعاصرة حاضنة للحب البرئ مادامت على نقيض مع الحب الطاهر نتيجة الحالة السلبية وهيمنة الوجه المادى والنزعة الجسدية و زوال الحركة والفكر فى المدينة الديستوبية.

الكلمات الدليلية: الشعر العراقى المعاصر، ياسين طه حافظ، تجربة الحب الرومنسى، المدينة الديستوبية.

*. أستاذ مساعد فى اللغة العربية وآدابها بجامعة فرهنكيان، طهران، إيران ati.abiat@cfu.ac.ir
**. أستاذ مشارک فى اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، طهران، إيران afeghi@ut.ac.ir
***. باحث ما بعد الدكتوراه وخريج مرحلة الدكتوراه من جامعة طهران، طهران، إيران
hsn_elyasi@ut.ac.ir

تاريخ الاستلام: ١٤٤٢/٠٢/٢٧ق تاريخ القبول: ١٤٤٢/٠٧/١٥ق

المقدمة

ارتبطت التجربة الشـعرية بتجربة المكان مند العصر الجاهلى حتّى يومنا هذا ونرى للمكان حضوره المتجذّر على أرض القصيدة فى العصر الجاهلى فكثيراً ما نرى الشعراء الجاهليين يعكفون على المكان ويسـتهلون افتتاحية قصائدهم بذكره ويسهبون الحديث عنه كأن المكان العنصر الأساسـى فى بناء الشـعر ونرى اليوم هذا العنصر السـردى، قـد ازداد حضوراً وبلورة فى الشـعر العربى المعاصر وخاصة عند طائفة من الشـعراء الذين يرون أن المكان هو الحاضنة الشعرية وأرضيتها وهو الذى يجعل الشاعر المعاصر يتوغل فى صميم التجربة الشعرية بالتعكز على العنصر المكانى. حضور المكان وارتباطه بالتجربة الشعورية، أمر مهم لا يمكن الإغفال عنه ونرى بعض النقاد المعاصرين يعتبرون حضور المكان وحضوره الفنى، من أهم أسـباب النجاح فى الشـعرية ومما يبدو جديداً فى الشـعر المعاصر العربى وفى تمظهر العنصر المكانى فيه، هـو التمازج بين المكان وبين تجربة الحب الرومانسـى وحضور المكان هنا يختلف عن الحضور المألوف عند الشعراء بل يرتبط بالبعد السلبى للمكان أو حضور ملامح المدينة الفاسدة غير مرغوبة فيه وسط تجربة الحبّ الرومانسى.

يعرض الشاعر سـلبية المكان من خلال تجسيد حالات الحبّ الرومانسى وهذا هو ما يبدو جديداً ومبكراً فى الشعر العربى المعاصر ونرى الحضور المكثف لهذه الخصوصية الجديدة للشـعر العربى المعاصر فى شـعر الشاعر العراقى ياسـين طه حافظ. ارتبطت التجربة الشـعرية عند الشـاعر بتجربة الحضور فى المكان الفاسـد ويسعى الشاعر فى أشـعاره ليعكس تجربة حبّه الرومانسى فى مناخ المكان الفاسد ويقف فى الصف المعادى لهـذا المكان الذى يكون فى مفارقة مع الحّـب والصفاء والبراءة. يرمى هذا البحث إلى دراسة هذا الموضوع فى شعر ياسين طه حافظ وتبنّى للنيل إلى أهدافه من خوض عالم الشاعر الشعرى، المنهج الوصفى _ التحليلى ويحاول عبر مقاربة شعر الشاعر فى الاطار المذكور أن يفتح أعين للمتلقيين نافذة على كيفية المزج بين التجربتين فى شـعر الشـاعر وهذه الورقة البحثية شـأن كلّ البحوث العلمية يمتلك فرضية أساسـية مفادها أن شعر ياسـين طه حافظ شـعر مكانى بامتياز ويتجلّى حضور المكان فى شعر الشاعر بالصورة

السلبية والمكان الحاضر فى شعر الشاعر لايتلاءم ونفسية شاعر عاشق مثل ياسين طه حافظ وهو يصبو إلى الجمال والجلال ويضمر فى نفسه قصة عشق يتّسم بالجمال والصفاء والنقاء. مما تكمن فيه ضرورة الدراسة هو أن هذه الخصوصية الشعرية التى يحمله شعر الشاعر فريدة فى نوعها ولم نعثر على دراسة شاملة حول هذا الموضوع وخاصة فى تجربة هذا الشاعر الشعرية ونحاول من خلال تسليط الضوء على هذا الملمح الشعرى الجديد للشاعر، الكشف والإبانة عن الحضور السلبى للمدينة وتعريتها فى الفضاء الشعرى الرومانسى عند هذا الشاعر العراقى المغمور.

أسئلة البحث

يحاول هذا المقال أن يجد إجابات واضحة لمجموعة من الأسئلة منها:

١. ما هى أهم مواصفات المدينة والمكان الفاسدين فى شعر ياسين طه حافظ؟

٢. كيف يمزج الشاعر بين التجربتين فى عمل شعرى واحد؟

وهذه الأمثلة وما يماثلها من الأسئلة تكون بمثابة دافع للخوض فى غمار هذا الجهد العلمى وهذه المحاولة الجادة هى الأولى من نوعها والتى تقوم بمقاربة المزج بين الواقعية والرومانسية فى شعر الشاعر.

فرضيات البحث

١. المدينة الديستوبية فى شعر الشاعر تحمل الملامح السلبية والوجه المادى للمدينة وسيطرة الشهوانية و جمود الفكر والمواصفات السلبية الأخرى هى التى تجعل الشاعر يرفض المدينة الفاسدة.

٢. يعمل الشاعر على تعرية المدينة الفاسدة فى أشعاره ويجسد المفارقة بين الحب بصفائه ونقائه وبين المدينة الفاسدة التى تتفارق ونفسية ياسين طه حافظ.

خلفية البحث

كثرت الدراسات التى تناولت موضوع المدينة فى الشعر المعاصر فنذكر منها: بحثا يحمل عنوان: جدلية المكان فى خطاب سعدى يوسف الشعرى للباحثين حسين الياسى

وملا إبراهيمى وهى منشـورة فى مجلة الآداب بجامعة فلسطين ودراسة أخرى للباحث جمـال طالـبى مقالة معنونة بـ: دراسـة الرؤيـة الجدلية مع المدينـة فى تجربة أمل دنقل وهى مطبوعة فى مجلة اللغة العربية وآدابها سـنة ٢٠١٧م والمقالة دراسة عابرة للمدينة وسـلبيتها فى الأبعاد السياسـية والاجتماعيـة والاقتصادية وكتب صـادق آلبوغبيش وآخرون بحثا بعنوان: ملامح الديسـتوبيا وتمظهراته فى أشـعار عبدالرزاق الربيعى سنة ٢٠٢٠م وهو منشور فى مجلة لسان المبين والمقالة دراسة للوجه السلبى للمدينة فى بعدها السياسـى فى شعر الشـاعر بحيث هى دراسـة لأزمة المدينة تحت الاحتلال الأمريكى وكتبـت فاطمة برجـكانى مقالة تحمل عنوان: الديسـتوبيا فى الرواية العربية المعاصرة: قراءة فى رواية "أورويل فى الضاحية الجنوبية" والمقالة منشـورة فى مجلة إضاءات نقدية سـنة ٢٠١٨م وهى دراسة لإشكاليات سياسـية واجتماعية للمدينة وهناك دراسات عديدة عن شـعر ياسين طه حافظ نخصُّ بعضا بالذكر منها مقالة عبدالرزاق كريم خلف ويونس عباس حسين وهى تحمل عنوان "الهيمنة السردية وتقنياتها الإجرائية فى النص الشـعرى الحديث" والمقالة منشـورة فى مجلة كلية التربية الأساسية سنة ٢٠١٠م وهى دراسـة لاحتفاء الشاعر بالسرد فى أشعاره كافة ودراسـة لأنماطه مثل الزمان والمكان والحـوار والشـخوص و.. وهناك مقالة أخرى تحمل عنوان "تداخل الأمكنة فى شـعر ياسـين طه حافظ" للباحث يونس عباس حسـين والمقالة منشـورة أيضاً سنة ٢٠١٤م فى مجلة كلية التربية الأساسـية بجامعة بابل وهى دراسة عابرة لتداخل الأمكنة المغلقة والمفتوحة فى شـعر الشـاعر واختار الطالب على سريع يحيى الموسوى شعر ياسين طه حافظ ميداناً للبحث والدراسـة فى رسـالة معنونة بـ" البنية السردية فى شعر ياسين طه حافظ" ونوقشـت الرسالة عام ٢٠١٩م بجامعة القادسـية وتطرق الباحث فى قسم من رسالتها لمعالجة المكان السردى فى شعر الشاعر وكتب ياسين النصير مقالة تحمل عنوان "ياسـين طه حافظ: تراجيديا الشعر" والمقالة منشورة فى مجلة اللحظة الشعرية يصدرها الشاعر فوزى كريم سـنة ٢٠١٧ وهى عرض موجز ومختصر لظاهرة الحزن الرومانسى فى شعر الشاعر ولم نجد بعد الجولة الطويلة فى المجلات والمواقع بحثاً يمتُّ بصلة لموضوع هذه الدراسـة وما صار مطروحاً من الحديث عن المكان فى البحوث السـابقة، لم يخرج

عن إطار دراسة سردية المكان وفاعلية المكان السردى فى شعر الشاعر ويعدُّ هذا البحث العلمى المحاولة الأولى الجادة التى تسعى لاستجلاء حضور المكان فى بعدها السلبى والإحباطى وفى اتصاله بتجربة الحبّ فى شعر ياسين طه حافظ.

نبذة عن حياة الشاعر

ينتمى ياسين طه حافظ إلى جيل الموجة الصاخبة وهو جيل الستينيات (سامى مهدى، ٢٠١٤م: ٤٤)، فى الحركة الشعرية العراقية. ولد الشاعر (١٩٣٦م) فى محافظة بغداد وفى منطقة الأعظمية والشاعر الابن الأكبر لأبيه ونشأ وترعرع فى كنف والدٍ كان يهتم بتربيته. أكبَّ ياسين على تعلّم الشعر العربى القديم وحفظ القرآن الكريم مبكراً وتفتحت ملكاته وموهبته وهو صغير وكان يرى فيه أبوه مخايل هذه الموهبة . كان لعام (١٩٤٩م) تأثير بالغ فى حياة الشاعر بعد انتقال الأسرة إلى المدينة وبسبب عقوبات متعددة افترضت على أسرته. ترك الشاعر أمانيه الصغيرة فى مدرسته الكبيرة فى بغداد واستقر به الأمر فى هذه المدرسة وفى الحقيقة كانت لهذه النقلة تأثيرها البارز فى تكوينه الشخصانى وهذا ما نلمسه فى قصائد الشاعر مثل قصيدة: تينة نهر الشيخ. (الصالحى،٢٠١٧م: ٧- ٨)

أنشد مجموعة من القصائد فى غاية الجمال والبهاء والنضج من حيث الإبداع وترك مجموعة ثرَّة من القصائد ذات الطاقات الكثيرة والقدرة على الإيحاء والبوح مثل: ديوان الوحش والذاكرة (١٩٦٩م)، ديوان قصائد الأعراف (١٩٧٤م)، ديوان البرج (١٩٧٧م)، قصائد من زمن الحرب صدر عام ١٩٨٦م، ديوان فى الخريف يطلق الحب صيحته (٢٠١٢م) وديوان لكنّها هى هذى حياتى الذى صدر عام (٢٠١٢م) وآخر مجموعة شعرية أصدرها الشاعر هو ديوان "الحديقة ليست لأحد" وهى مجموعة شعرية صدرت عن منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب فى العراق (٢٠١٧م) وكان للشاعر أربع مراحل شعرية مختلفة وتغلب الرومانسية على المسيرة الشعرية للشاعر فى كلّ هذه المراحل المختلفة وفى جميع هذه المراحل الشعرية يقوم بالمزج الواعى بين الرومانسية والواقعية أو ما يسمّى بالرومانسية الموضوعية بحيث يقوم الشاعر بتعرية

الفضاء الديستوبى للمدينة وسط الفضاء الشعرى الرومانسى.

الديستوبية

كثر استعمال مصطلح الديستوبيا فى عصرنا الراهن ولا سيّما فى الأعمال الأدبية التى تتخذ بالصبغة الواقعية. فمصطلح الديستوبيا مرتبط بمصطلح يوتوبيا الذى استخدمه "توماس مور".

فالديستوبيا هى نقيض اليوتوبيا، فعندما تخطىء اليوتوبيا تكون الديستوبيا حيث ينتشر المرض و الدمار وهى تعنى المدينة الفاسدة أو الواقع المرير. (مور، ١٩٨٧م: ١٣) إنَّ الديستوبيا من المصطلحات الجديدة التى ظهرت فى الأدب وخاصة الرواية حيث تبلور فى ساحة الأدب والرواية، نتيجة ارتباطها الواقعى والموضوعى بالواقع الإنسانى والمجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه الإنسان المعاصر وبعد التنازل الحقيقى عن رومانسية الرؤية إلى الأدب والشعر تحديداً وصار لهذا المفهوم حضوره الفضفاض والواسع فى الأدب والرواية، نتيجة الخرابات التى تحملها الأرض على كاهلها ونتيجة الفساد المتفشى فى المجتمع الإنسانى والمدينة «وتبلور باعتباره مفهوماً متعارفاً عليه فى منتصف القرن العشرين وذهب البعض إلى أن الأدب ليس وحده هو الذى أوجد هذا المفهوم وإنما عند العودة إلى المصادر الفلسفية تبين لها تردد أصداء مفهوم الديستوبيا فى فلسفة فريدريک نيتشة العدمية أو النهليستية كما يطلق عليها والتى وجدت امتداداً لها فى القرن العشرين فى إيدئولوجيات الفيلسوف الأمريكى ريتشارد روتى بل وأيضاً فى مفهوم الواقع الشبيه لدى الفيلسوف الفرنسى جون بودريار.» (نجدى، ٢٠٢٠م: ٤٢)

الرواية الديستوبية إشارة إلى حالة من الحضور للمكان أو المدينة فى الأدب والرواية فى تمظهره السلبى فى الروايات أى تجسيد خبث الواقع بما فيه من الإحباط والخراب فى أرض الأدب والرواية. «أصل الكلمة مأخوذة من اليونانية بمعنى المكان الخبيث. الأدب الديستوبى أو الرؤية الديستوبية هو أدب المدينة الفاسدة أو أدب الواقع المرير وهو مجتمع خيالى مخيف أو غير مرغوب فيه تسوده الفوضى ومن أبرز ملامحه الخراب، القتل، القمع، الفقر والمرض وهو يأتى فى مقابل أدب اليوتوبيا أى المدينة الفاضلة.» (پرچكانى،

٢٠١٨م: ١٣٦) يعيش فيها الإنسان بالسعادة والرفاهية ولا يرتطمه القلق ولا يرتابه الخوف والتى يستشرف فيها الإنسان المستقبل بصورة أكثر سعادة ورفاهية وعيشة من الحاضر السعيد وفى المقابل تنتفى نتيجة خراب الواقع وخبثه الرؤية المستشرفيه فى الديستوبيا ولا يرى فيها الإنسان مخايل السعادة والنجاة ولا يرى فيها إلا المأساة والنهاية المؤلمة للإنسان وهذا هو المفارقة الوجودية بين المكانين وبين الإنسان فى المجتمعين.

وثمة نوع من الحضور لديستوبيا وهو الحضور فى الشعر الرومانسى بصورة يعكس الشاعر من خلال تجربة الحب الرومانسى ومن خلال تجسيد الحب يعكس الحالات الفاسدة للمكان ويحاول عبر المزج بين الرؤية الرومانسية والرؤية الرواقعية أن يزيل الستار عن وجه المجتمع فى مسعى لتعرية الواقع الإنسانى والمجتمع الذى يعيش فيه.

يعدُّ "ياسين طه حافظ" من أبرز الشعراء الرومانسيين الذين مزجوا بين تجربة الحب وتجربة الواقع فى شعره وسعى فيه لفضح الواقع المدنى الذى لا يتلاءم مع تجربة الحب المتّسم بالصفاء والبراء ونقاء الباطن والخارج وفيما يخصُّ بمصدر هذا الاهتمام بالمكان فى التجربة الشعرية الرومانسية، يمكن القول إنَ هذا الاهتمام يعود إلى العلاقة بين الإنسان والمكان. العلاقة بين الإنسان والمكان «علاقة جدلية وفى الحقيقة لا يحتاج الإنسان فقط إلى مساحة فيزيقية يعيش فيها ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته ومن ثمَ يأخذ البحث عن الكيان والهوية شكل الفعل على المكان لتحويله إلى مرآة فيها يرى الأنا صورتها.» (لوتمان، ١٩٨٦م: ٨٣) وإذا كانت هذه هى حقيقة حضور الإنسان فى المكان وهو يعى هذه الحقيقة بالكامل، فإنه يأبى تماماً الحضور فى الفضاء الديستوبى للمدينة وخاصة إذا كانت قضية الحبّ مطروحة فى هذا الميدان ولابراح إنَّه يرفض هذا المكان وهذا الحضور وهذا هو سُّر الوقوف بوجه الديستوبيا وخاصة عند الأعمال الرومانسية التى تحمل صفاء الحب والبراءة التى تفارق هذا المكان السلبى وهذا من جهة ومن جهة أخرى يمكن القول إن الشاعر المعاصر «لا يتفاعل مع المكان حرفياً ومباشراً بالصورة وإنما يسعى إلى محاوره والدخول فى أعماقه مسبغاً عليه عالمه الشعورى وشعوره الوجدانى وتسعى لتسكب فيها خلاصة تجربتها.» (ربابعة، ٢٠١٢م: ١٤٢) واذا كان هذا هو حقيقة التعامل مع المكان فكيف الشاعر

الرومانسي الذى لايعرف سوى الصفاء والبهاء، يستطيع احتضان المكان السلبى أو يعيش فى الفضاء الديستوبى للمدينة التى تمنع كلّ شيء وحتى تصدم العلاقات الإنسانية.

المدينة الديستوبية والمكان فى شعر ياسين طه حافظ

فى هذه الفقرة نحاول الولوج فى صلب الموضوع لعمل على دراسة الملامح السلبية للواقع المعيش وديستوبيا المدينة فى شعره ونحاول الكشف والإبانة عن حقيقة تعرية المدينة فى شعر الشاعر فى شعره الرومانسي مما يعدُّ جديداً. فى هذه المغامرة البحثية، نعتمد على الرؤية التحليلية إلى أشعار الشاعر وخاصة الأشعار التى أنشدها قبل مغادرته لبغداد فى ديوان: الوحش والذاكرة وقصائد حبّ على جدار آشورى وفى الخريف يطلق الحب صيحته. ياسين طه حافظ من أبرز الذين أكثروا من استخدام المكان الفنى فى أشعارهم وتصوير المدينة بتفاصيلها «فالمدينة عنده البؤرة المركزية التى تستقطب تفاصيل الحياة وهى وإن كانت مكاناً مركباً من أمكنة متعددة وعلاقات متشابكة، لكنَّها ترتبط بالجانب السياسى والاجتماعى وظاهرة المجتمع توحد بينهما وكلتاهما تبرز وتتمظهر فى المجتمع نفسه.» (المدينى ،٢٠٠٠م: ٢١) وما يلفت النظر فى شعر ياسين طه حافظ والذى يبدو جديداً ومبدعاً هو الدمج بين التجربتين المختلفتين فى الشعر وهذا الدمج يتأتى من الدمج الفنى الأسطورى بين المكان فى بعده السلبى والإحباطى وبين تجربة الحبّ الرومانسي للشاعر من خلال استحضار معشوقته فاطمة وهذا الدمج بين التجربتين فى شعر الشاعر، يعدُّ من إبداعاته الشعرية. يعكس الشاعر من خلال اشعاره الرومانسية موقفه الرافض من المدينة المعاصرة التى لا تتلاءم ونفسية شاعر عاشق مثل ياسين طه حافظ تحلق روحه الوهّاجة فى الآفاق الرحبة. فى ما يلى نقوم بدراسة التمظهرات المختلفة للمكان فى شعر الشاعر ونسلّط الضوء على كيفية الدمج بين التجربتين المختلفتين فى شعر ياسين طه حافظ الذى اشتهر فى أوساط الأدب والشعر برومانسيته الموضوعية.

هيمنة المدينة على وجود الإنسان وضياع الحب

أكثر ما يمرُّ به الشاعر فى المدينة هو الحالات المختلفة من القمع والتعذيب والعذاب

النفسى بالنسبة للإنسان وخاصة عندما يرحل من أحضان الريف بصفائه ونقائه وصفوة العلاقات وعلاقة الشوق والحنين لها.

المدينة الديستوبية التى تحمل السلبية والانحطاط عند الشاعر تشكل يومياً صفحة من صفحات العذاب والمعاناة للشاعر العاشق الذى يرى صفحة المدينة بلا المكياج والروتوش والمتسمة بالسواد والقتامة وتغيب عن عينيه تلك الصفحات البيضاء من الحياة فى الريف بحيث يلاقى الحبيبة فى أجواء طافحة بالنور والحياة والشوق والنشوة إذ يقول:

حبيبتى/من يمنح العون لروحى فى مدينة كلها رحى/ساعة سقوط المدينة/سيتوقف فى واحدة من خطواتنا الانهيار/صحيح هى بلامكياج/ولولاكِ لما رأيت ثروت الحب الهائلة/تبدو نينوى شحاذة فى الطريق/بغداد مقفرصة على كوم الانقاض/وأنا اجد فى حبك حلا ورغيفا والماء/وليكن فى السوق المضبب ما يكون/وصار الحب/ قضية يتدخل فى توجيهه القدر والقوانين وشروط العيش/فى كون مسمّم بالرصاص والخردل/فلن يجده أحد/ولن نتوقع أن نسلم فيه من/مكائد سفلة و سفاهات بهاليل. (طه حافظ، ٢٠١٤م: ١٤٨- ١٤٩) وفى هذا النص الشعرى الذى نستشف منه حزن الشاعر نتيجة حضوره فى المكان الضيق والسلبى الذى جعله المتبرم بكلّ إشكاله، نرى الشاعر يخاطب رفيقة روحه "فاطمة" بصورة التماسية ويعبّر عن حالات عذابه ومعاناته فى المدينة التى أصبحت الرحى تمضغ جسده الطافح بعبير الحب والعشق والصفاء الريفى والمدينة كالرحى يمزّق جسد الشاعر ويجعله عرضة للبلاء والأحزان ومن دون الروتوش وبلاالمكياج، يبسط قبضته على جسد الشاعر والمدينة هى بغداد التى يبكى الشاعر على أنقاضها وهى مكان له سطوته على الإنسان والحياة الإنسانية برمتها ويهيمن على علاقات الإنسان والحبيب والحبيبة ويكدّر صفوة الداخل والخارج وهذا هو مدينة الشاعر الذى يرى الصفاء والنقاء فى الريف ويخزن لا يزال تلك الصفحات البيضاء من حياته فى الريف مع عشيقته فاطمة مما يجعله فى الضيق النفسى حدّ المأساة والخناق نتيجة الفضاء السلبى المدنى الذى ينكمش فيه الحب والعشق وصار الحب هو الموضوع غير المرغوب فيه ولا يجِّده أحد فى هذه المدينة التى تزيد الشاعر وجعاً على الوجع فى

حياته بكل تفاصيلها حين ينشد:

أغلقتُ نافِذتى وأسدلتُ كلَّ الستائرَ/يطاردنى فى المدينة/كلّ الذينَ هنا حول بيتى/ فامحت لحظاتُ لقــاءٍ صادقة ومصادفة حلوةً/واختفت الأوجه/كلُّ هذه النوافذ مغلقة/ والشــجر الأخضر يحمرُّ، يبكى، يموت. (طه حافــظ، ٢٠١٤م: ٨٧) وفى مثل هذه المدينة التى نزح إليها الشاعر تجعل قبضتها على الإنسان وعلى علاقات الحب والعشق والحنين بين الناس فى المدينة ولا يرى الشاعر الذى فى المدينة إلا العلاقات المسمومة بين الناس فى المشــاهد المختلفة والهوّة بين الناس فى الفضاء المجتمعى الديستوبى مما يجعل الشاعر يحتمى بكاهله المثقل من الأحزان والأتراح إلى بيته. لا يرى الشــاعر من ملامح الحب والعشــق شــيئا بل يرى تمحى لحظات اللقاء الصادقة والحلــوة وضياع حالة التواصل الحميم وضياع الحياة المتمثّل فى احمرار الشــجر الأخضر فالشــجر الأخضر يدلّ على الحيــاة الطافح بعبير الحياة ونشــوتها واحمراره هذه الحياة وبكائها تعبير شــعرى عن ضياع الحياة والحب فى المدينة. كل ما يرتطم به الشاعر فى المدينة هو ضبابية العلاقات والاتصــال بالوجوه المقنعة واختفاء الوجوه الحقيقية والجوهر الأصيل للإنســان وهذا هو الوسم الحقيقى للمدينة عند الشاعر ياسين طه حافظ.

الوجه المادى للمدينة وتجربة الحب

حين ينزح شــاعر بقامة ياسين طه حافظ إلى المدينة بفضائها الديستوبى وهو يحمل ذكريات الصفاء والنقاء، يشــعر فى المكان الجديد – الذى يفارق تماماً مع الحياة الريفية التى تكون فيها العلاقات بين الناس على أســاس الحب والعشق والإنسانية– بنوع من التذمّر والألم النفســى نتيجة المفارقة بين المكانين: الموطن الأول المتسم بالصفاء والنقاء والثانى بفضائه الديستوبى ولا براح أنَّ قسماً كبيراً من التدهور بين العلاقات فى المدينة وهذا يعود إلى ســطوة المادية على الحياة فى المدينة ويعكس الشاعر ياسين طه حافظ هذا الحاجب للقاء بين الطرفين والعاشقين بقوله:

قــدر ما يحزُنــنى هذا/دعى الآخريــن فى فوضاهُم/فى صخبِ البيع والشــراء/وفى المشــاريع الكبيرة والأمجاد/هم لم يحظوا بجلسة مثل هذه/سيظلونَ بلا شموع و قصائد.

(السابق: ١٤٦) ولا يتمتّع الناس فى المدينة نتيجة هيمنة المادية على النفوس والمشاعر وعلى العلاقات بين الناس، بتجربة حبّ خالص مثل تجربة ياسين طه حافظ فى موطنه الأول؛ فالناس فى المدينة غارقون فى الأميال المادية وهذا هو عند الشاعر من الأسباب التى تحدُّ من نشوء علاقات الحب الرومانسى والناس غارقون فى ضوضاء البيع والشراء ولهذا لم يتمتّعوا بحالة من العيش والحب وهذا ما يشكّل حاجباً بين اتصال الأرواح عند ياسين طه حافظ ولهذا يستحضر رفيقة روحه خضم صراع الناس فى المدينة من أجل إرضاع رغباتهم المادية بحيث ظلّوا بلا الشموع والقصيدة فى المجتمع الديستوبى المادى ويدعوها إلى المعانقة وفعل التواصل والتماهى.

فساد الحبِّ فى المدينة الديستوبية

ومن أهم الملامح السلبية للمكان يجسّدها ياسين طه حافظ فى أشعاره هى فساد المدينة والفضاء الديستوبى فى شعر الشاعر فى تصويره لهذا الموضوع يجسّد المكان كمجتمع غاب لا يخضع لأى قانون وشروط مجتمعية مما مما يؤدى إلى فساد المجتمع وهذا الفساد فى المدينة قد يتسرّب إلى داخل العلاقات الإنسانية برمتها وفساد الحبّ عادة عند الشاعر ينطلق من فساد المجتمع ولنقل إن فساد المجتمع يجعل الحب وكلّ ما قيم بالنسبة للإنسان والمجتمع سحيقاً منسياً والشاعر فى أشعاره لتجسيد حالة فساد المدينة فى الفضاء الشعرى الديستوبى يستحضر مدينة سدوم التاريخية ويقول:

فأجأتنى سِباخ مدينتک الفاجرة/أطبقت على تصيح بفم مخيفٍ: هو ثأرى/برق طارئٌ على شبكات سدوم/خذ جرحکَ وأمضِ/ليست روحى وحدها المفجوعة/ هى روحها واحدة الدرارى فى كوننا التالف/وظلت هى فى مستنقعات المدينة/تلعقها كلاب المدينة والسماسرة. (طه حافظ، ٢٠١٦م: ٢٤- ٢٥) والفضاء الديستوبى الذى يعكسه هذا التشكيل الشعرى السردى هو فضاء المدينة التى يسكن فيه الشاعر ولا يحظى بشىء من الصفاء والنقاء والبراءة. المدينة فاسدة ديستوبية تجعل الشاعر فى العذاب والمعاناة نتيجة المشاهد الفاسدة التى تترأى امام عينيه فى كلّ يوم من حياته فى المدينة والمشهد السردى يأخذ مساحة كبيرة من صور غياب الإرادة أو الدعوة

إلى الخروج. الروح مسكونة باللافعل وسط ساحة الفساد والشهوة والامتثال لها أو المحاولة للخروج والرهبة وردة الفعل والخروج على أساس منطق العقل الحبِّ. (هياس، ٢٠١٦م: ١٨٥) إذ إن منطق العقل والحب يأبى الحضور وسط الفساد والخراب فى الفضاء الديستوبى للمدينة ولهذا يدعو الشاعر عبر المونولج الداخلى الذى يحتويه النص الشعرى إلى أن يأخذ بجراحه ويترك منطقة الفساد والمدينة الفاسدة والشاعر فى هذا التشكيل الشعرى استخدم مدينة سدوم التى وردت ذكرها فى التوراة «فهى مدينة كما تصوّرها التوراة مدينة الموبقات والشهوات الدنية.» (الزيادات، ٢٠١٤م: ٦٩) والرغبات الجنسية ليلج به المتلقى فى الفضاء الديستوبة للمدينة التى صارت كمدينة سدوم بفسادها ومستنقعاتها التى تتسرب إلى فضاء الحب والعلاقات وصار الحبّ فى هذه المدينة الديستوبية الفاسدة يحمل وشم الفساد والخراب ولا يحمل وسم الصفاء والبرائة مما يجعل روح الشاعر وروح حبيبته فى هذه المدينة الفاسدة مفجوعة وموجوعةً فى كلّ حين.

يرى الشاعر فى هذه المدينة الفاسدة الحب والحبيبة فى قفس الشهوات الدنيئة والرغبات الشهوانية الفاسدة وظلّت فى مستنقعات المدينة الفاسدة تلحقها كلاب المدينة وهى ترمز بها أهل المدينة الذين يرون فى الجسد بعده الشهوانى وكلّ ما يهمّهم فى هذه المدينة إشباع اميالهم الشهوانية الغريزية وهذا ما يجعل المدينة عند ياسين طه حافظ فاسدة بحيث تزول به العلاقات الحميمة الوفية بين الناس فى هذا المجتمع وصار أهلها غارقين فى مستنقعات الفساد والخراب والشذوذ الأخلاقية كما يعكسها هذا التشكيل الشعرى للشاعر إلى جانب ما يؤول اليه المكان من الضياع والخراب مما يدمر حتّى الجانب الروحى للإنسان المعاصر وخاصة الإنسان الريفى الذى لا يطيق صبراً على المشاهد الفاسدة للمدينة التى تحطُّ بها الكلاب وسماسرة الروح والجسم بالنسبة للإنسان المعاصر وخاصة الجسد عند حصره فى دائرة الشهوات الدنيئة كوسيلة من وسائل الاشباع الغريزى.

المدينة الديستوبية والإغراء السلبى

هناك وجه آخر من وجوه المدينة والذى يقف منه الشاعر موقف الرافض فهو الحالة

المغرية للمدينة. فاليوتوبيا عادة تمتلک حالة ثقافية خاصة يشعر فيها الإنسان بنوع من الرّضا النفسى والأمن العاطفى من دون الخوف فى حالة السواد و السقوط الأخلاقى والديستوبيا يختلف من حيث الوجوه المتسمة بها خاصة فى الروايات الديستوبية التى تعكس هذا الوجه من الديستوبيا والشاعر فى قسم عظيم من أشعاره يرفض الحالات والمشاهد المغرية للمدينة التى تجعل الإنسان فى ورطة الخطر والموبقات:

أخلع كلَّ جلابيب العيشِ/سأشغل نفسى بالحُبِّ ويشغِلنى/تعِب الإنسان المدعو هنا/من لبس بهارجهِ/من الأضواء المصنوعة ترسم هيأته/كم يبدو مزدحماً و يمور/تتدفق افواج الضحكات وفى داخل/حزن عصور. (طه حافظ، ٢٠١٤م: ٣٠- ٣١) والمشهد الشعرى يحتوى على النماذج الكثيرة من صورة الإغواء والإغراء للإنسان وخاصة الإنسان الريفى الذى لا يزال يحمل الصفاء والبراءة وأكثر ما يجعل هذا الصفاء والبراءة فى الخطر بهرجة الحياة والصور المبهرجة للمدينة مما يشكل مجموعة من الإغراءات المختلفة التى تدخل الإنسان فى الشذوذ الأخلاقى والانحراف والإنسان القادم من اليتوبيا يلمس فى المدينة المشاهد المغرية والمدينة ببهارجها والأضواء المصنوعة فى تعبيرها عن بهرجة الحياة فى المدينة يجعل الإنسان فى التعب والإرهاق غير أنَّ هناک وسيلة تزيل الملل والضجر وهى الحب بوصفه الملجأ والمعاذ للإنسان مقابل التيارات المغرية المخدعة للإنسان فالحبُّ فى هذا الميدان هو الفن والوسيلة للحياة اليوتوبية والحبِّ عند الشاعر وسيلة الإنقاذ للإنسان فى كون طافح بالمشاهد المغرية المخدعة.

يقول فى قصيدة أخرى:

المدينة المُحجَّبة /بالزيف والمباهج الفارغة /وبعشرات الأقنعة والجلابيب الثقيلة/ تلک المدينة الصخرية/تغرق من يمرُّ فى طرقها/قصة الحب غريبة فى هذه الدينة. (السابق: ٥٩) والشاعر تصيبه الدهشة والاغتراب فى مثل هذه المدينة الحجرية التى فقدت روحها وقصة الحب فى هذه المدينة، قصة غريبة وفى هذه المدينة يغرق الإنسان فى مباهجها الزائفة الفارغة والمشاهد المغرية لهذه المدينة التى فقدت أصالتها وروحها، هى التى تجعل الإنسان غارقاً فى المباهج المغرية المزيفة وهذه المباهج والمشاهد المغرية بدورها، تنفى حضور تجربة الحب الأصيلة فى هذه المدينة التى تجعل الجشع والحيوانية

سيدة المواقف بين الناس فى المجتمع وصار التعامل بالأقنعة والجلابيب الثقيلة.

فضاء الموت وعلاقة الصدام والصراع

فضاء الحب هو فضـــاء الحياة والعيش والدفء والجمال غير أن المدينة تحولت إلى محـــل للصدام والصراع والفضاء المعيش فى المدينة الديســـتوبية هـــو فضاء يعجُّ بالموت ورائحته وهذا الوضع المأساوى نتيجة لغياب الحب والألفة الاجتماعية فى هذا الفضاء تفتت وهكذا النسيج الاجتماعى ولا نلحظ التماسک الاجتماعى فى الفضاء الديستوبى والموت هو الوسمة الواضحة لهذا المكان:

أخبـــار مدينتكم مُربكةٌ يـــا حبيبتى/والموت فيها كالحـــبِّ صدفةٌ/والناس تذكّروا انوع القتل والقطع/وغرقت فى النســـيان المباهج/المدينة ظاهرة احشاؤها الاضراس/ فى الهامـــات و العيـــون فى الاقدام...كوابيس/أغلق الباب والنافذة/لاالحب و لا الحياة فى زمـــن الرعب/ليس لى فى هذا العالم الشـــائه الا لحظات.. (طه حافظ، ٢٠١٦م: ٢٩)

فضـــاء المدينة فى غياب الحـــبِّ صار فضاء الموت والنهاية المؤلمة للإنســـان وللعلاقات الإنسانية. فى هذا التشكيل الشعرى نرى الشاعر يجسّد إغلاق الأبواب والنوافذ ويعبّر من خلال هذا التجســـيد الشعرى عن غياب علاقات الحبِّ والانتماء فى المدينة وضياع التماســـک الاجتماعى ونتيجة هذا الغياب تفشى الموت والضياع فى الفضاء الديستوبى للمدينة بحيث صار الموت فى هذ المدينة اعتباطية وضاع الحب وكلُّ المباهج والمسرات فى هـــذه المدينـــة وفى هـــذه المدينة لا يحمل الحـــب ملامحه الخاصـــة ولا محل للحب فى المدينة الديستوبية وصارت الكوابيس تحطُّ بالهامات والاقدام و يتذكّر أهل هذه المدينة شـــتّى انواع القتل والذبح والقطع والموت والحديث عن القتل والذبح واستغلال الآخر بالصـــورة الحيوانية هو الطابع الأســـاس لخطاب أهل المدينة وحـــلَّ الموت محل الحبّ والعشـــق الحقيقى الذى لا يكتمل عند الشاعر فى الفضاء الضوضائى للمدينة التى يملک أهلها النهمة الشـــديدة إلى القتل والذبح والقطع والاصطراع كوحوش الغابة ولا يعرف الحب والعشق بل بنيت على أساس الصراع والقتل والتكالب. يقول:

متكتّمة هـــى فى المدينة الحجرية/مدينتها المقنّنة محســـوبة الرخام/والتى لا تفارقها

اصطدامات الناس/وعربات القتال منذ تأسيسها/عبرها متكتّمة تمرُّ حبيبتى، وجهها لا يكفُّ/رغم لفاعاته، عن السطوع/ساكنة تشى بلذة ناعمةٍ بمتعٍ نادرات. (طه حافظ، ٢٠١٤م: ٣١) والحب الأصيل عند الشاعر رديف للحياة والديمومة والحركة. المدينة المعاصرة بفضائها الديستوبى تفقد الحركة والاستمرارية والحياة فى غياب الحبَّ وتفشى الموت والضياع، تفقد الروح والأصالة بفعل القتل والارتطام والصدام من دون أن يكون هناك محل للحب والعشق والانسانية وفى مدينة حجرية فقدت روحها وجوهرها ولا تنبض بالحياة والحركة وتكتظُّ بالموت والقتل والاصطراع بحيث صارت هذه الظاهرة الجزء البنيوى فى تكوين هذه المدينة الجامدة التى يفقد فيها الإنسان المشاعر ولهذا «ينبجس الشعور الإنسانى المرير حين تتحوّل إلى عالم خارج عن أن يحتضن الشاعر بين جناحيه وتمثل عند الشاعر أبرز معانى الموت والغدر والتسلط والصراع.» (ربابعة، ٢٠١٢م: ١٦٣) والحب بوصفه القوة المحرّكة التى تشيع الحياة والحركة فى مثل هذه المدينة، يقفد فاعليته ويبتعد عن جوهره الاصلى ويرى الشاعر أن المدينة لاتتخلص من فضاء الموت والضياع إلا باعتناق أهلها الحب كالمذهب والمبدأ والحب الأصيل الروحانى هو وسيلة النجاة والإنقاذ غير أن الحب بوصفه الملجأ والمعاذ للإنسان، يخرج عن إطاره الروحانى نتيجة هيمنة الحيوانية والصراع على العلاقات الإنسانية ولا يخرج فى هذا الفضاء الديستوبى عن إطار اللذة والجشع والالتماس الجسدى وهذا هو حقيقة الحبِّ فى المدينة المعاصرة.

الجمود والزيف والتقنع

تجسيد الصورة الحقيقية للمدينة الديستوبية التى اتّسمت بالزيف و المراوغة والتقنع وجمود الأفكار والمشاعر هو وجه آخر من وجوه المدينة الذى يكثر الشاعر من التعبير عنه فى أشعاره. ففى مثل هذه المدينة التى نزح اليها الشاعر العاشق الريفى يرى فيها أن كلَّ شىء صار خارجاً من جوهره الأصلى ويرى الافكار جامدة وعلى الوجوه الاقنعة والسواد:

موحشة حياتنا ومدمَّرة الحافات/أشياء كثيرة فقدت لونها/الثياب والوجوه والأفكار/فنحن نتحرك بحكم الاعتياد/نعيش بحُكم حيوانية تجوع وتبرد/اكبر

عمـارة هى القبو واكبر ريح خسـارة/أو وهكذا يكسـر الحب نصفـين وماذا بعد/لا نملک عمراً لنضيّع ذهبَه بالتردد/بالتوقف والبدء مرة ثانية أو ثالثة/كيف أفسّر الرغبة بالمحو والإعجاب/فى هذا الخليط من الموتى والقتلة/وآكلى اللحوم النيئة والمشوهين. (طه حافظ، ٢٠١٦م: ٣٦- ٣٧) والمشـهد الشـعرى الديستوبى - عبر استخدام الرموز الشعرية المختلفة مثل الثياب والقبو والحيوانية والوجوه فى تعبيرها عن الهوية والأصالة والقبو هو الحضيض وهو تعبير عن سـكونية الفضاء والحياة والأشـياء- يجسّد الحالة السـلبية للمدينة؛ ففى هذه المدينة الديسـتوبية كلُّ الأشياء فقدت لونها واللون هنا بنية للمعنى ترتبط فى الذاكرة الإنسـانية بالتجلى والحس واثارة الشـعور والحس الصادق مثل حس الطفولة والتى من تجلياتها القداسـة والـبراءة. (عفيفى، ٢٠١٦م: ٤١) ولكنَ الشاعر لا يرى من مخايل هذا اللون شيئاً فى المدينة ويرى الأشياء فقدت لونها والثياب بوصفه من الرموز المعرفية فى الذاكرة الجماعية لا يرى الشـاعر عندها الثبات بل يرى فيهـا التأرجح والتذبذب فى كل حين وتغير لون الثياب فى التشـكيل الشـعرى يحيلنا إلى التحول السـلبى لكلِّ ما هـو جميل وأصيل فى المدينة وحـتى الأفكار والوجوه فى هذه المدينة الديسـتوبية لا تحمل بصمة من بصمات الحقيقـة بل قناع الزيف والتصلف والكـذب هو ما غطّى الوجوه واعتلى الجمـود على الأفكار والأحلام فى هذه المدينة. الناس فى هذه المدينة فقدوا إنسـانيتهم وروحانيتهم ولا يرى الشـاعر هنا اختلافاً بين الحيوانية والروحانية وفى الحقيقة يرى الحيوانية أكثر قهراً وسـلطوية على أهل المدينة وسـيطرة هذه الحيوانية هـى التى تقصر من دائرة الحب وتجعلها كسـيراً بمعنى الكلمة وفى الحقيقة الحب ذو البنية الروحانية ولا يطيق الشاعر فى مدينة مثل هذه المدينة التى تحكم الحيوانية على السلوک والمشاعر والأحاسيس وصارت خليطا من القتلة والموتى ولا يرى فيها الشـاعر مـا يبعث على الحلم والإعجاب ويبلـغ حد الخناق من الصور المأساوية لهذه المدينة الديستوبية.

انتفاء تجربة الحب الخالص عند ضغوط المدينة وفساد الداخل

ثمة مفارقة بين الريف وبين المدينة. فضاء الريف هو فضاء الحياة والحرية والانطلاقة

الواسعة من دون التمنع وفضاء المدينة المعاصرة، فضاء الخناق والضيق والمدينة نتيجة الأزمة المالية تفرض القيود والضغوط على الإنسان المعاصر وعلى العلاقات الإنسانية وفى هذه الفضاء الديستوبى الضاغط، تنتفى إمكانية علاقات الحب والانتماء؛ لأن الحب لايظهر ولا يتنامى إلا فى الفضاءات الرحبة من دون القيود والاصطدام.

يعكس الشاعر هذا الوجه السلبى للمدينة الديستوبية ويقول:

بعد الحراسات/بعد الطرق المغلقة/بعد الشرطة والنظرات الشزر/بعد الاعتقال/ بعد حوانيت نشرب فيها أحزاناً صامتة/يا حزن الإنسان/لم يكن الحب لنا/لم يلق قلوباً سالمة من العطن/لم يلق الحياة/الحب يعود لفراغ العالم.. (طه حافظ، ٢٠١٦م: ٤٦- ٤٧) وغلق الطرق والحراسات والشرطة صورة من صور ضغوط المدينة على الإنسان والعلاقات الإنسانية والشرطة رمز السلطة وفعل لقمع الذى تمارسه المدينة على الإنسان وهذا ما يجعل الإنسان المعاصر فى فضاء التيه والاغتراب وفعل الاعتقال هو اعتقال للمشاعر والأحاسيس بفعل المادية التى صار الإنسان فى قبضتها وهذه الضغوط التى تمارسها المدينة تمنع من تجربة الحبِّ فى المدينة. هذا وأيضا فساد الداخل يمنع إلى جانب هذه الضغوط من تجربة الحب؛ فأصبح القلوب فى ظلِّ المادية والغريزية عفنة وعطنة وهذا أيضاً يحدُّ من إمكانية تجربة الحب فى المدينة .

فيقول الشاعر فى مشهد شعرى آخر:

بعدَ مُزامنةٍ، بعدَ ألفةٍ للإيحاء المصطنع.../وإشارات النبالة والهيبة الأولى...رأى الحارس....واستسلم../لا يقظة فى المدينة من هذا كثير../كم تؤلمنى رؤيتكَ نبيلة قلقةً/ بين لحظة وأخرى تخشين فضحاً/قد يفلت من حركة أو كلمة فى صياغة الكلام//ها أنا أرى الجمال منكسراً آخر الغرفة..لو أستطيع أن ألمَّ من حولك الشظايا/لتهنئنى بعزلتك. (طه حافظ، ٢٠١٦م: ٣٣-٣٤) ونرى الشاعر يستخدم فى قصيدته رمز الحارس للتعبير عن ضغوط المدينة على علاقات الحبّ والانتماء والرقابة التى تمارسه المدينة على مشروع الحب وعلاقات الحبّ والصداقة بحيث تكون هذه الرقابة مصدر الألم والأذى للطرفين ويعود الحب لفراغ العالم عند الشاعر وينتفى بها الحلم واليقظة وتدخل المرأة فى القلق والألم وهذه الضفوط تسلب من الطرفين تلك النشاط والحركية الأسطورية

التى يضخها الحب داخل الطرفين وهذا الموضوع ينتفى تماماً فى فضاء المدينة الديستوبية الـتى تمارس الضغوط والرقابة وهكذا يضيع الجمال فى هذا الكون الديسـتوبى وضياع الجمال عند الشاعر أفدح الخسارات بحيث لا يجد الشاعر على وجه الأرض شيئاً يجبر الخسارات التى يتركها ضياع الجمال.

الديستوبيا وزوال الأفكار والإبداع

مـن أهم مواصفات المدينة المعاصرة، ثقلها على الإنسـان والتمنع من الانطلاقة فى الفكر والوعى وفى الحقيقـة ليس فضاء المدينة فضاء الرؤيا وانطلاقة الفكر والتأمل فى العالم والأشـياء التى تحيط بالإنسان وهذا يعتبر من وهذا ما يصادف شاعرنا فى تجربته فى المدينة وهذه الخصوصية هى التى أبعدت المدينة عن المثالية التى يصبو إليها الإنسان:

فى مدينتک الحجرية/حيث الشـعر يبحث عن ظل يسـتريح/كنت أنت محنية على مكتبتک البسيط/ترسم نهاية القصيدة/هى مدينة تخشاها الحياة/دخلت المدينة أبحث عن المعنى/قلت/ظل مكانا نموت اشـتياقاً خير لى/من أن أراک مذبوحاً على عتبة أو رصيف/ونعلم جيداً أننا.نسـحق أيامنا وأجمل سـاعاتنا فى الوحل اليومى. (طه حافظ، ٢٠١٤م: ١٤- ١٥) الحيـاة فى ظـلّ الحب وعلاقـة الانتماء هى حيـاة تحمل البكارة والانطلاقة وتتسـم بالحيوية والحركة وحياة العاشقين كلها حركة واندفاعة من دون أن تعتريهما حالة من الانكسـار الداخلى والسـحق النفسى غير أن هذه الحياة فى المدينة المعاصرة تحوّلت بشـكل كبـير إلى جحيم وفى الحقيقة «عالم المدينـة تقيم عالماً جديداً بدلاً عن العالم الذى يصبو إليه الإنسـان ويصبح عالم الزوال للشـاعر ويحمل المحدودية والجمود إلى الإنسان وإلى مشاعره.» (العلاق، ٢٠١٤م: ١٦٧)

إن عالم الشعر هو عالم الرؤيا والرؤيا هى الانطلاقة فى الفكر والمشاعر والأحاسيس وبحثه عن ظلّ ليسـتريح، تعبير شـعرى عن حالة الانطفاء الداخلـى وزوال الرؤيا فى المدينة الديسـتوبية التى تخشـاها الحياة وهذه الحالة فى المدينة، هى التى تمنع من فعل الاتصال والدمج بين الطرفين وكيف وعالم المدينة ليس إلا عالم لسـحق الرؤيا والجمال تحـت وطأة الزمن وثقله على الشـاعر وحبيبته فى المدينة الديسـتوبية وهذا هو المعنى

المنبعث عن الوحل اليومى فى التشـكيل الشـعرى. إذن عالم المدينة عند الشـاعر عالم لايرى فيها الشـاعر الحركة والانطلاقة فى الفكر والشـعور ولا يحدث فى فضاء المدينة فعل التوهج الداخلى والوصول إلى فعل الإبداع تحت ثقل الزمن على الإنسان المعاصر ويشير الشاعر فى مشهد آخر إلى انتفاء الفكر والإبداع فى الفضاء الديستوبى إذ يقول:

كفّك النبيلة التى لم تشـبع تقبيلاً ترسـم نهاية القصيدة../فكـرتُ أن أحزم أمتعتى وأجىء/أدخل مثل مسافر يبحث عن المعنى/لكنك قلت هى المدينة التى تخشاها الحياة. (طه حافظ، ٢٠١٤م: ١٣) وفى الحوارية بين الشاعر وبيبته فى الفضاء الرومانسيلإ ترسم الحبيبة نهاية القصيدة وهى رمز الفكر والإبداع والشاعر برسمه نهاية القصيدة بدلالاتها المألوفةلإ يشـير إلى زوال الفكر وزوال الإبداع فى الفضاء الديستوبى مما يجعل الشاعر مسكوناً بهاجس الخوف والتوتر الداخلى مما يدفعه إلى البحث عن المعجزة والمعنى غير أن الحبيبة ترسـم له نهاية الإبداع وزوال الفكر و تسـري له عن مدينة تخشاها الحياة وكيف للشاعر أن يجد ضالته فى مثل هذه المدينة.

الديستوبيا والعادات والتقاليد

ومـن أهم العوائـق أمام إدراك الحبِّ و إدراك التجربة الرومانسـية الخالصة التى يعمل كوسـيلة محرّكة للإنسـان هى التشـبّث بالتقاليد والعادات القديمـة التى تمنع من الحصول إلى تجربة رومانسـية تكفل سـعادة الحياة واسـتمراريتها وحركيتها وشاعرنا تؤلمه هذه المشـاهد المختلفة من التشـبّث بالعادات والتقاليد المفضية إلى ضياع الحب وأواصر الصداقة والعشق ويجسِّد هذا الملمح السلبى من ملامح المدينة ويقول:

فاجـعٌ هو الحب/وصلنى متفسّـخ المعنى/لن يُجدى أن أمرر عليـه غبار المعلقات/ وأقاويل الموتى/الصحراء سكتت عن حقيقة القِصص/من يدعى أنه فهم الحياة إذا هو بائس/ آثمٌ أنا أتخبط فوق قشّ رطب/ماذا فعلت أنا لتسـمع صوتكِ/رأيتها أسطورة الجمال التائه التى يسـقط خطوها الحرس. (طه حافظ، ٢٠١٦م: ٥٢) يجسّـد هنا فجيعة الحب والعشـق ومصاحبته للألم والعذاب وتفسّـخ معانيه فى الفضاء الديسـتوبى الذى يتمسـك أهل المدينة الديسـتوبية بالأعراف والتقاليد البالية كأنهـم الموتى وما يلفت

الانتباه فى هذا المشـهد الشعرى، هو أن الشاعر بالتركيز على لفظة الموتى وعلى معانى الحب والعشـق يحاول تكريس حقيقة يؤمن بها وهى أن الحب وسـيلة لمصايرة العصر الجديد ووسـيلة بلوغ الحداثة فى الفكر وفى السـلوك وحتّى فى المشاعر وفى أحاسيس ومـادام الناس يتشـبثون بمثل هذه التقاليد والأعرافلإ لا يمكـن بلوغ الحداثة فى الفكر والمشاعر والأحاسيس إذ أن الحبَّ عند شاعر فن تكريس الحياة وفن ممارسة مشروع الجمال فى الحياة الإنسـانية وعند الشـاعر أنَّ الذين يتخبّطون فى الأوهام ويتشـبّثون بالتقاليد والأعرافلإ هم فى الحقيقة كالموتى لأنهم لا يدركون معنى الحياة وقيمة الحب.

الديستوبيا نتيجة عدم الانتماء للحبِّ

لعل من موضوعية القول إنَّ الحب عند الذين يميلون إلى الاتجاه الرومانسـى وسيلة الخـلاص والتحرر من فوضى العالم وتشـتّته والحبُّ عندهم يعمل كوسـيلة لبثّ الأمل والتفاؤل فى نفوس الناس وهو رديف للسعادة وكفيل له فى الحياة الإنسانية وفى الصور المختلفة من التعايش بين الناس وفى الحقيقة «بالحبّ يزدهر العالم ويسود منظومات القيم الجماليـة فيه وينمو نمواً جديداً بعيداً عن أمراض الحقد والاشـكاليات التى تحاصره.» (عابـد،٢٠١١م: ٣٨) والحب من هذا المنطلق هو فن الحياة وممارسـة الحياة وهو التى يعيد للحياة بهاءها وزهوها والالتزام به فى الكون وفى الحياة الإنسانية، طريقة للحفاظ على الحياة وإجهاض كلّ الأحقاد التى تضرُّ الأجيال وعند شـاعرنا ياسـين طه حافظ أن عدم الانصياع لمنطق الحب، هو المسؤول عن الكثير من العذابات ومادامت الأحقاد تحلّ محل الحب، لا يمكن الوصول إلى تلك المثالية التى يصبو إليها الإنسان:

نشـتبک بالأسـلحة على الأمكنة الأصلح للموت/والرواقيون الغائبون يقتسمون اللذة/فى الغرفة الثانية/نحن المختلفون على لون الظبية/يطرأ ذكر العفاف لن يجد/أنا المدانة بالغزو/احتلـتُ واحتال على الفرصة للنجو/لأنكم لم تعرفوا الحبَّ فلن تعرفوه أبداً/أنا وروحى شـريكان فى شـرف جديد/ ، فقد ملأت البلدة الكلاب/ها أنا أدينه لأنـه هجرَ ويدينني لأنـى غدرت/أدفع ثمنا آخر لمن لا يرى/ ما الذى نصطاده من هذه الفوضى/من العدم الكبير الصاخب. ما ينقذنا وأذرعنا فى فراغ أسود يتسعُ/وكل قصة

حبّ غابت لا نعرفها. (طه حافظ، ٨٤- ٨٥) يرى الشاعر أنَّ الفضاء الديستوبى الذى يهيمن على المدينة وعلى العلاقات بين الإنسان بوصفه ابن المكان والبيئة التى يعيش فيها وأيضا منظومات القتل وسلسلة الصراعات التى يراها فى فضاء المدينة الديستوبية، هو ينبثق عن الركون للأحقاد والضغائن وفقدان حضور الحبَّ وهذا عند الشاعر هو المسؤول لمأساوية المدينة وخرابها فى قسم كبير منها لدى الناس بحيث أغفلوا معنى الحب و صار الحقد والبغضاء محل الحب الأسطورى وفى غياب الحبَّ عشش الحقد والبغضاء والاحتيال والمراوغة فى نفوس الناس وفى عقولهم فى المدينة الديستوبية وفى الحقيقة كما يجسِّده الشاعر، فراغ العالم وإجهاض كلّ الأحلام الإنسانية وليد عدم الاعتراف بقيمة الحب ومكانته الاسطورية فى المدينة الديستوبية التى تكون فيها الذراغ فى فراغ أسود تتسع دائرته بكل يومٍ نتيجة إهمال الحبَّ بوصفه القوّة المحرّكة للإنسان والمجتمع وفى تجسيد شحن فضاء المدينة الديستوبية بالكلاب، يشير الشاعر إلى حقيقة الصراع والاصطراع فى فضاء المدينة الديستوبية وهذا الأمر عند الشاعر نتيجة لغياب منطق الحب فى الكون وفى العالم وعند الشاعر هذا الكون صار مشهد التراجيديا اليومى لفقدان الحب وفى المقابل تجذّر البغضاء والأحقاد فى نفوس الناس مما يجرُّهم إلى الصراع والاصطراع يومياً.

ضياع الروح وهيمنة الجسد فى المدينة الديستوبية

يصوّر الشاعر فى الكثير من أشعاره عذابات الروح فى المدينة الديستوبية. المدينة الديستوبية عند الشاعر هو المكان الذى يصبح مصدر عذابات الروح ومعاناتها فى ظلّ احتدام الجانب الجسدى والنظرة الرغبوية إلى الجسد والروح فى هذا الفضاء الديستوبى تغطّها العذابات والمعاناة فى فضاء المدينة و هذا عند الشاعر وليد عدم ممارسة مشروع الحب فى المجتمع المدنى ونرى شاعرنا يجسّد فى قصيدته عذابات الروح فى الفضاء الديستوبى للمدينة:

هذه جلستُ توجع الروحَ/الحقيقة يابستُ لا تلين/عجلى الخطو قبل الظلام/تلك حافلة واقفة/دنَس لا يفارقه ايامه الفاجرات حراسه/تفتّت مِلحاً مدينتنا/تلفت كلُّ

ابراجها/ميت كل هذه الحمام/وأنا أشهد الموت حولى وأسأل نفسى/كيف تعيش على اللغو والدغل هذى الملايين/هى الريح فاسدةٌ/والمدينة فاسدة والكلام/ولا أحد ينقذ فى غمرات الجحيم أحد. (طه حافظ، ٢٠١٦م: ٦٧-٦٨) يجسِّد الشاعر فى هذا المشهد الشعرى من ديوان "فى الخريف يطلق الحبّ صيحته" ضياع الجانب الروحى والإغراء الجسدى فى المدينة الديستوبية ويرى الشاعر أن الفضاء الديستوبى للمدينة تكثر فيه متعة الجسد والنظرة الشهوانية فى المدينة، هى مصدر عذابات الروح وإحباطها؛ فالدنس والدغل واللغو من معطيات الفضاء الديستوبى للمدينة وإذا كانت الروح هى حقيقة الإنسان فنحن نرى هذه الحقيقة الروحانية تنكمش ومآلها إلى الضياع نتيجة النظرة الرغبوية الشهوانية ومتعة الجسد وفى الحقيقة أنَّ هيمنة الجانب الجسدى فى المدينة الفاسدة، تصبح مصدر عذابات الروح ومعاناتها وتصبح الريح فى تعبيرها عن السطوة الفاسدة للجسد والجشع الجسدى، مصدر لعذابات الإنسان وإحباط الروح وسقوطها عند التفشى الواسع لإيقاع الجسد فى الفضاء الديستوبى للمدينة. الشاعر من خلال وصف الأيام بالفاجرات وإسقاط صفة العهر على المدينة وعلى الأيام فى هذا المكان، يعبّر عن النظرة الرغبوية والشهوانية إلى الجسد ولا يرى الشاعر فى هذا الفضاء الديستوبى مجالاً للسمو والتعالى للروح بل يرى الإحباط والسقوط والحياة فى هذا الفضاء الديستوبى رديف للموت والتفتّت والضياع وكل مظاهر الدنس والدغل فى هذا الفضاء، يخرج الجسد والروح من روحانيتهما وتجعل الجانب الروحى فى العذاب والمعاناة ويجعل الحقيقة الإنسانية وهى الجانب الروحانى حدَّ النسيان والضياع فى هذا المكان الفاسد بفعل الهيمنة الجسدية.

النتيجة

إنَّ "ياسين طه حافظ" من الأسماء الشعرية المتميّزة فى الحركة الشعرية العراقية. نرى عند الخوض فى عالم الشاعر الشعرى أن الرومانسية تطغى مسحتها على شعر الشاعر وفى الحقيقة هو شاعر رومانسى تماماً ومع هذا لم يغفل المجتمع والمكان الذى يعيش فيه ويعمل فى أشعاره كافة على الدمج بين الرومانسية والواقعية التى ترتبط بالواقع

واشكالياته ومن صور هذا المزج نراها فى مجموعة من أشعار الشاعر يعكس فيها موقفه الرافض للمكان الديستوبى خلال تجسيد حالات الحبِّ والانتماء وعليه فإن الشاعر فى هذه المجموعة من أشعاره يضع النقاط على الحروف فى التعبير عن سلبيات تمنع من تحقيق اليوتوبيا الذى يطمع إليه الإنسان المعاصر وما يلفت الانتباه فى الارتباط بهذا الموضوع، هو أنَّ الشاعر فى التعبير عن الفضاء الديستوبى للمدينة يستخدم الحب ومعطياته والحبُّ فى فلسفة الشاعر هو القوّة المحركة التى تضخ الحياة فى الحياة و فى الكون ومن شأنها ردم الفراغات التى تتركها الاشكاليات السلبية على وجه الحياة الإنسانية غير أنَّ الشاعر لا يجد مكاناً لهذا الحبُّ الأسطورى فى الفضاء الديستوبى للمدينة وكلُّ ما يجلب انتباهه هو سحق هذا الحبُّ وإجهاض الحلم الإنسانى وعذابات الروح ومعاناتها فى ظلِّ الهيمنة التامة للجانب الجسدى وتفشى معطياته التى من شأنها تغذية النهمة الجسدية واشباع الرغبات الجسدية الدنسة ومن الوجوه السلبية للمدينة الديستوبية كما يعرضها الشاعر فى أشعاره، هى الضغوط المختلفة وفرض الخطوط الحمراء على العلاقات بين الناس فى المجتمع وأيضاً سطوة المادية مما تخرج المجتمع والمكان من مثاليتهما ولكنَّ الشاعر وسط هذه الخرابات والعذابات يدعو الجماعة الى التشبّث بالحبِّ للخروج من دائرة العذابات التى تتسع يومياً والحبُّ عند الشاعر هو الحقيقة الكونية التى يمكن للإنسان المعاصر الذى يطمح إلى اليوتوبيا المثالى، أن ينقذ الإنسان من عذاباته ومعاناته ويمكن له أن يقاوم بها كل السلبيات التى تمنع من تحقيق مثالية المجتمع والمكان.

المصادر والمراجع

البستانى، بشرى. (٢٠١٥م). وحدة الإبداع وحواريّة الفنون. ط١. عمان: دار فضاءات.

برچگانى، فاطمة. (٢٠١٨م). «الديستوبيا فى الرواية العربية المعاصرة: قراءة فى رواية أورويل فى الضاحية الجنوبية لفوذى ذبيان». مجلة اضاءات نقدية. السنة الثامنة. العدد ٢٩. صص ١٤٩-١٣٢

طه حافظ، ياسين. (٢٠١٦م). ما أراد أن يقوله الحجر. بغداد: دار حيدر.

السابق.(٢٠١٤م). المجموعة الشعرية الكاملة. بغداد: دار الشؤون الثقافية.

عايد، توفيقز (٢٠١١م). شاعرة عراقية تطالب بتحرير ثقافتنا من التبعية واستنجار المواقف (الحوار).

موقع الشاعرة بشرى البستانيز www.dijila.com
عفيفي، احمد. (٢٠١٦م). الصوت المختلف. ط١. عمان: دارفضاءات.
العلاق، على جعفر. (٢٠١٤م). حداثة النص الشعرى. عمان: دارفضاءات للنشر والتوزيع.
كاظم عباس الصالحى،سميرة. (٢٠١٧). شعر ياسين طه حافظ: دراسة فنية. رسالة ماجستير. بغداد: جامعة بغداد.
لوتمان،يورى. (١٩٨٦م). «مشكلة المكان الفنى». ترجمة وتحقيق: سيزا قاسم. مجلة ألف. القاهرة. العدد٦. صص ١٠٥-٧٦
نجدى عبدالستار، محمد. (٢٠٢٠م). «تشكّل الشخصية فى الرواية الديستوبية». المجلة العربية مداد. العدد الرابع. المجلد التاسع. صص ٨٨-٤١
المدينى، احمد. (٢٠٠٠م). أسئلة الإبداع فى الشعر العربى المعاصر. لبنان: دارالطليعة للنشر والتوزيع.
مور، توماس. (١٩٨٧م). يوتوبيا. ترجمة وتحقيق: أنجيل بطرس سمعان. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
مهدى، سامى. (٢٠١٤م). الموجة الصاخبة فى شعر الستينيات فى العراق. العراق: دار ميزوبوت ميا.
هياس، خليل شكرى. (٢٠١٦م). القصيدة السير ذاتية: بنية النص وتشكيل الخطاب. ط١. عمان: دار غيدا للنشر.
يحيى الموسوى، على السريع. (٢٠١٩م). البنية السردية فى شعر ياسين طه حافظ. من متطلبات شهادة الماجستير فى اللغة العربية وآدابها. العراق: جامعة القادسية.